الحياة العقلية[1]

في صدر الدولة العباسية

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

في العصر العباسي الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) ازدهرت الحياة العقلية ازدهاراً كبيراً ، وتلاقت في الحواضر الاسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم المرتقية في أثرها ، في العلم والثقافة ، كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة ، وكان عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى طبعها أثر الثقافات والوراثات .

كان النفوذ فيه للفرس ، وانتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على يد الوزراء وكتّابهم الفارسيين ، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية — إلى العربية تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة ، وانتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادراً عن عقليتين وثقافتين ، وكان رجال العلم في هذا العصر أكثرهم فارسيون ، حتى قال ابن خلدون : إن حملة العلم في الاسلام أكثرهم من العجم[2]

ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر أيضاً على الفكر الاسلامي بامتزاج الجنسين في الحياة الاجتماعية ، وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية . وإذا كان خالد بن يزيد م ٨٩ هـ أول من ترجم — أو ترجمت له — كتب النجوم والطب والكيمياء[3] فقد عني المنصور م ١٥٨ هـ بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها ، وبعث الى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من كتب الفلاسفة واستطار لها مبرة الترجمة وكلفهم فأحكام ترجمتها[4] ، بل كان

(١) يراد بالحياة العقلية حركة النفس الانسانية في جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والآداب .

(٢) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون (٣) ٢١٣ / ١ البيان والتبيين للجاحظ ، ٩٧ ، الفهرست لابن النديم .

(٤) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الامم لصاعد الاندلسي ، ٢١ تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ، وراجع حركة الترجمة في (٢٢٩ — ٢٢٣ الادب العباسي لمحمود مصطفى ، ١٧٧ وما بعدها و ٢٦٤ و ٢٦٨ — ٢٧٠ / ١ ضحى الاسلام) .

المنصور أول خليفة قرّب المنجمين وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والنبطية والفارسية والسريانية[١] وكذلك فعل الرشيد ، وبلغ من اهتمام المأمون أن سافر إلى بلاد الروم في استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربي ، بعث المترجمين لذلك[٢] ، وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج المترجمين[٣] وهي مكملة لـ الحكمة التي بناها الرشيد للترجمة[٣] ، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقاليد الإيرانية في أمور الدولة فقد أخذت في ساحة الحضارة والثقافة أموراً كثيرة من بزنطة[٤] .

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامي مباشرة وبوساطة الفرس أيضاً ، أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية ، وليس لهم ثقافة ، وبعد أن تعلموا العربية لم يلبثوا منهم في الأدب والشعر والعلم إلا القليل ، كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان .

وكان للإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة في الدين واللغة والأدب والشعر كانت هي أهم شيء أثر في الفكر الإسلامي وكانت المورد الأول للناس جميعاً .

تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي الأول ، وأحدثت أثرها في العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات[٥] وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدموا معاني للأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها .

وفي العصر العباسي الثاني (٢٣٢ — ٣٣٤ هـ) زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها ، بتطاول الزمن وتلاقح العقول . وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم في البلاد الإسلامية .

وكان العصر العباسي الأول تغلب عليه نزعة الاعتزال التي أيدها المأمون بكل ما يستطيع ، ولكن العصر الثاني وهو عصر النفوذ التركي كان مصحوباً بمظاهر جديدة أهمها إلغاء سلطان المعتزلة واضطهاد أئمة المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل في القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة ، كمحمد بن أبي الليث في مصر وأحمد بن أبي دؤاد في العراق ، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين ، وكان هذا الاتجاه يحمي بتأييد الأتراك ويعملون له[٦] .

ومراكز الحياة العقلية في العصر الثاني كانت كثيرة متعددة ، فنشطت الدراسات

(١) ٢٤١ / ٤ وما بعده مروج الذهب (٢) ٤٨٠ و ٤٨١ مقدمة ابن خلدون
(٣) ٢٣٠ الأدب العباسي لمحمد مصطفى (٤) ٣٨ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد
(٥) ٣٨٠ / ١ ضحى الإسلام (٦) راجع ١ / ٤١ ظهر الإسلام

السينية والفضية في مصر ، وتفوقت الشام في الشعر والآداب واللغة[1] وكان للعراق السيادة في العلم والأدب والفلسفة ، فكانت بغداد والبصرة وحران أهم مراكز العلم والحضارة . فالجاحظ والكندي بصريان ، والبتاني الرياضي الفلكي م ٣١٧ هـ من حران . وكانت بغداد تجذب العلماء إليها من كل أرجاء العالم الإسلامي ، واشتهرت بلخ وخوارزم واصفهان في ميدان التفكير والثقافة . فنبغ منها أبو زيد البلخي م ٣٢٢ هـ أحد تلاميذ الكندي المشهور وأبو موسى الخوارزمي صاحب المؤلفات القيمة في الجبر الحساب ثم أبو الفرج الاصفهاني مؤلف الأغاني ، وسواهم من العلماء .

وبعد فالعصر العباسي الثاني كان زاخراً بالعلوم ، قديمها وحديثها ، كما كان حافلا بالعلماء والمفكرين والفلاسفة — وكانت العلوم المترجمة شرطاً في تكوين ثقافة الكاتب والأديب ، وراج علم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس[2] والأدباء .

وعلى أي حال فلم تكن مناهج التفكير واحدة عند جميع الناس ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده في العراق ، ويشير ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » على الحالة في عصره حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق[3] وكانت جماعة الأدباء يضجرون من الثقافات المترجمة وعلومها ، حتى قال ابن المعتز يصف من يؤثره بصداقته :

فإن تطلبه تقتنصه بحانة ... وإلا ببستان وكرم مظلل
ولست تراه سائلاً عن خليفة ... ولا قائلاً من يعزلون ومن يلي
ولا ماثلاً كالعير في يوم لذة ... يناظر في تفضيل عثمان أو علي
ولا حاسباً تقويم شمس وكوكب ... ليعرف أخبار العلوم من اسفل
يقوم كحرباء الظهيرة ماثلاً ... يقلب في اسطرلابه عين أحول
ولكن فما عناه وسره ... ومن غير ما يعنيه فهو بمعزل

(١) راجع ٨ / ١ البيئة للثعالبي ، ١٧٧ ج ١ وما بعدها ظهر الاسلام .

(٢) — أو اشتهر علي بن جور الفارسي — وكان كتابه سلاف ذا عقر النجوم — بإخلاقها في شعره (٢٩٣ معجم الشعراء) .

(٣) راجع ص ٢ وما بعدها أدب الكاتب بهامش المثل السائر ، وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته الفارسية وسواها (راجع ٤٠٢ ج ٤٠٦ — ١ ضحى الاسلام) .